الكتابة المغربية

مظاهر تطورها ونواحي الضعف فيها

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد 15 - الخميس 5 رجب عام 1357 الموافق فاتح شنتنبر سنة 1938

2

بين التطور والنضوج مراحل يجب أن نستفيد من تجارب غيرنا من الأمم لنقطعها في أسرع وقت ومن أقرب طريق. فإن عوامل الانقلاب والنهضة التي اختمرت في البلدان العربية الأخرى في أجيال ينبغي أن تعمل عملها في هذه البلاد في جيل واحد، فنقبر الأساليب العتيقة المخلة بالحياة الجديدة دون أن نترك فراغا لمعتنقيها يملأونه بمجادلات كثيرا ما تكون عقيمة، وكثيرا ما تؤخر عوامل النهضة الحقة والتجديد الصحيح. وهكذا يجب أن نتجه بالكتابة المغربية فننتشلها من وهدة الأساليب العتيقة ونصيرها صالحة لتؤدى ما تؤدي إليه الكتابة في العصر الحاضر من تعبير صادق عن الحياة في تناسق وانسجام ومن غير تطويل ممل أو تعسف في اختيار الألفاظ والتنقيب عن المترادفات.

ويظهر أنه في أمد وجيز اختفت من ميدان الكتابة المغربية أو كادت تختفي تلك الأسجاع المصطنعة والتراكيب الفخمة الجوفاء والتعبيرات المقلدة لمبالغات ناسبت الماضي ولكن جفاها ذوق العصر، فإن أغلبية الكتبة المغاربة الذين يتناولون القلم اليوم أصبحوا لا يفكرون في تلك المناهج الكتابية التي مارسها آباؤهم ومن على شاكلتهم في هذا العصر، بل أمسوا يزدرون هؤلاء الذين يحاولون تقليد الماضي.

ولكن - كما ذكرت في مقالي السابق - للكتابة المغربية التجديدية نواحي ضعف تكونت

تحت عوامل ثلاثة: تأثير الماضي وضعف الحاضر وحيرة الاتجاه في المستقبل.

تأثير الماضي

ولست أدعي أن أساليب الكتابة الحديثة طرقها جميعها الكتاب المغاربة فأجادوا، فإن مثل هذا الادعاء يكون باطلا من نفسه، ولكن أستطيع أن أزعم أن أدب المقال يأخذ الآن شكلا من أشكال الارتكاز الأولى؛ وليس من البعيد أن نرى قريبا نهضة للتأليف أقدر لها من الآن أن ستكون ناضجة نوعا ما وكذلك الموضوعات الكتابية الأخرى من قصة ورواية وغيرهما.

وأدب المقال أو أسلوب المقال حديث العهد بين أساليب العربية أحدثته الصاحافة، لم يعرفه كتابنا في العصور الماضية بصورة محددة كما نعرفه اليوم إذ هناك فرق كبير بين التأليف والمقال أو بين فصل ينشر ضمن كتاب وبين مقال يتدرج في صحيفة. ومن بين المقاييس الماضية التي لا زالت مسيطرة على الكتابة المغربية أن الكاتب يتصور أن طول المقال يدل على تمكن الكاتب من موضوعه. فمن القواعد الحديثة للمقال أن يتضمن فكرة في عبارات محددة متزنة، ولكنها تؤدي الفكرة من غير إجحاف أو فضول؛ فالتطويل في المقال دون أن يشمل شرح فكرة من الأفكار يؤدي بالقارئ العصري إلى التأفف؛ والتأفف يؤدي بطبيعة الحال إلى هجر مقالات ذلك الكاتب المطيل.

على أن التطويل في الدراسات الأدبية أو العلمية لتحليل موضوع من الموضوعات ضرورى في بعض الأحيان، ولكن في الأسلوب الحديث وضعت له أساليب مثل تقسيم الموضوع إلى فقرات، كل فقرة بمنزلة مقال، أو تحديده بعناوين تجزئه إلى فصول، كل فصل يتصل بناحية من نواحي الموضوع المطروق ولكنه مستقل تقريبا بنفسه.

وإذا ساغ لبعض الأدباء أن ينطلقوا في حديث ممتع فيطيلون المقال، فإن ذلك لا يسوغ

إلا لطئفة خاصة من الموهوبين منهم لنكثهم اللاذعة أو وصفهم الشيق أو تحليلهم البارع؛ أما أن يحاول كل كاتب أن يطيل، فذلك ما يبتعد عن الذوق العصري والأساليب الحديثة في النقد الأدبي.

ثم إن هناك كاتبا مغربيا قلما يدخل الموضوع الذي يحاول معالجته رأسا، فلا بد من تمهيد أو تمهيدات تضيع عليه فكرة المقال الأساسية، وكثيرا ما تكون تلك التمهيدات في غير محلها أو عبارة عن سرد معلومات يعرفها القارئ، بينما من مميزات الكتابة العصرية الهجوم على الموضوع، فالقارئ اليوم يلم بأشتات من المعرفة تسمح له أن يدرك الفكرة الرامي إليها الكاتب دون أن يضطر ذلك الكاتب أن يمهد لها بتمهيد يبتدئ من خلق الله آدم ليصل إلى الموضوع المقصود؛ فالكاتب المغربي إذا أراد - مثلا - وصف حادثة تجلت فيها فضيلة الاعتماد على النفس عند أوربي يعمد في أغلب الأحيان إلى الكلام عن طبيعة البشر، وعما ورد في مدح الفضائل والتدليل على سمو المتحلى بها، وهكذا يظل ينتقل من موضوع إلى موضوع وأخيرا يصل إلى المضوع المعين في عنوانه، فيأتي مقاله طويل الذيل، لا هو بالدراسة للفضائل ولا هو بوصف لتلك الحادثة وإيضاح العبرة منها. وكذلك في أغلب نواحي الكتابة، فالذي يريد أن يتكلم عن حادثة تاريخية قد يسرد تاريخ تلك الأمة التي وقعت فيها الحادثة. ولعله من الخير أن يتجه الكتاب المغاربة من الآن إلى التزود في الكتابة الأدبية من التحليل الدقيق للموقف أو الفكرة التي يتناولون، وفي الكتابة العلمية من الدقة في عرض القضية التي يشرحون، فإننا في عصر المعرفة الواسعة التي ترتبط بإحساسات النفس العميقة، ومقاييس الفكر أكثر مما ترتبط بالنغمات الموسيقية في الألفاظ التي لا تنكر قيمتها ولكن يجب أن تقرن بصوغ الفكرة صوغا محكما. وبذلك نكون قد ابتعدنا عن أساليب الكتابة الماضية التي كانت توجه كل اهتمامها لنغمات السجع والجناس بينما أن هناك موقفا يجب أن يحلل وفكرة ينبغي أن تبسط وقضية بصدد الشرح.